هوامش

ترك رياض السنباطي خلفه مكتبة موسيقية ضخمة، لا تزال بصمتها حاضرة في العالم العربي، إذْ بلغ عدد مؤلفاته الغنائية 539 عملاً، كما أنّه ألّف 38 قطعة موسيقية

في سنة 1935 كان أول لقاء عملي بين السنباطي وأم كلثوم مع أغنية «على بلد المحبوب» (فيسبوك)

رياض السنباطي
عبقرية الموسيقى العربية

القاهرة ـ **محمد كريم**

«الفقي لما يسعد يجي له ختمتين في ليلة واحدة»؛ مثل عامي ذكره الموسيقار رياض السنباطي وهو يضحك حين دق جرس التليفون في منزله مرتين متتاليتين، المرة الأولى يخبره المتصل بدعوته للذهاب إلى براغ (عاصمة تشيكوسلوفاكيا)، يوم 6 أكتوبر/ تشرين الأول 1977 كي يتلقى جائزة اليونسكو الدولية في الموسيقى، والمرة الثانية لدعوته إلى مسرح سيد درويش لاستلام شهادة الدكتوراه الفخرية من الرئيس السادات في عيد الفن يوم 8 أكتوبر!

وهناك قصة معروفة ترتبط بترشيح السنباطي لجائزة اليونسكو، ذلك أن الموسيقار التونسي صالح المهدي (1925-2014)، رئيس مجمع الموسيقى العربية التابع للجامعة العربية، رشّح السنباطي للجائزة العالمية مؤثراً إياه على نفسه، وبالرغم من ذلك فقد استاء أحد أعضاء المجمع النافذين، يصفه السنباطي بالملحن العجوز، من هذا الترشيح بحجة أن السنباطي لم يكرم محلياً حتى يتم تكريمه عالمياً، وهنا جاء الرد التاريخي من المهدي وفيه: «لقد كنت أعتقد أن السنباطي شخصية عربية قامت بإثراء الإنتاج العربي مع حفاظها على أصالة هذا الفن في جميع خصائصه، وإنني أعتقد أن عربياً واحداً لا يحس بموسيقاه أو ينكر دوره في الموسيقى العربية، أو يستطيع أن يحملني على ترشيح الأستاذ محمد عبد الوهاب الموسيقار العربي. وقد درس المجتمعون في اليونسكو موسيقى المتقدمين للجائزة الدولية؛ درسوا موسيقى ليتارو أزفيدوا البرازيلي، وخرينكوفوف الروسي، وإدوارد الغاني، وجودمان عازف الكلارينت الأميركي، ورياض السنباطي، وقالوا إن السنباطي يستحق الجائزة حقيقية لأنه استطاع بالموسيقى التي قدمها التأثير على منطقة لها تاريخ حضاري»!

بينه وبين عبد الوهاب

اهتم الباحثون والنقاد دائماً بالمقارنة بين رياض السنباطي ومحمد عبد الوهاب. ومن ذلك ما يقوله صميم شريف، في كتابه (السنباطي وجيل العمالقة): «إذا نظرنا إلى أسلوب السنباطي في التلحين، لوجدناه يختلف تماماً عن أسلوب محمد عبد الوهاب، على الرغم مما ذهب إليه بعض النقاد من المتعصبين لمحمد عبد الوهاب، من أن السنباطي يغرف من مدرسة عبد الوهاب. وفي واقع الأمر، وعلى الرغم من التشابه في الأسلوبين في مرحلة من مراحلهما التلحينية في سني الأربعينيات، فإن الأسلوبين كانا يتباعدان باستمرار، لأن السنباطي ظل موغلاً في شرقيته، يغرف من أصالته العربية بلا حساب، بينما سار محمد عبد الوهاب بعيداً في التطوير (كما يراه)، والذي وجده في استخدام المزيد من الآلات الموسيقية الغربية، والتوزيع الموسيقي، وفي متابعة الاقتباس والاهتمام بالأغنية القصيرة، التي هي أغنية عصر الاكتشافات والفضاء. بخلاف السنباطي الذي انصبت اهتماماته بالدرجة الأولى على الأغنية الكلاسيكية الطويلة والقصيرة، وتطوير الطقطوقة، وإلى حدٍ ما بالأغنية القصيرة، والتوزيع في حدود آلات الفرقة الموسيقية العربية الخالصة».

العودة إلى البدايات

في بدايات القرن الماضي كانت قرية فارسكور تابعة لمحافظة الدقهلية، وفيها ولد رياض السنباطي سنة 1906 (وقيل سنة 1911)، للشيخ محمد السنباطي، أحد المقرئين الذين احترفوا قراءة القرآن والإنشاد الديني والغناء في الموالد والأفراح، كما كان متقناً لعزف العود. وفي هذه الأجواء ظهرت موهبة الغناء عند الطفل رياض الذي تعلم الغناء من والده الذي لقنه أغنيات محمد عثمان وعبده الحامولي، واستفاد عن طريق السماع من الأسطوانات التي توافرت لديه لسيد درويش وعبد الحي حلمي ويوسف المنيلاوي وسيد الصفطي وأبو العلا محمد وغيرهم. انتقل الولد والوالد إلى المنصورة فأهمل الولد التعليم وشغف بالغناء والموسيقى العربية. وجاءت إصابته بالتيفود في عينه لكي يترك المدرسة، ويصبح جزءاً من فرقة والده، فقد كان مطرباً مجيداً وعازفاً على العود، بل سرعان ما أصبح نجم الفرقة ومطربها الأول، وأطلقوا عليه لقب «بلبل المنصورة»، وحين استمع إليه سيد درويش أعجب به وأراد أن يصطحبه إلى الإسكندرية، لكن والده رفض لأنه أصبح يعتمد عليه بصورة كبيرة في فرقته، وعندما ظهرت أم كلثوم وعلا نجمها قال عن نفسه: لقد أصبح بلبل المنصورة مهدداً بالضياع!

باختصار

رشّح الموسيقار التونسي صالح المهدي، رئيس مجمع الموسيقى العربية التابع للجامعة العربية، السنباطي للجائزة العالمية

■■■

ولد رياض السنباطي سنة 1906 في قرية فارسكور التابعة لمحافظة الدقهلية، والده الشيخ محمد السنباطي أحد المقرئين الذين احترفوا قراءة القرآن

■■■

سنة 1928 انتقل السنباطي مع والده إلى القاهرة، أملاً في أن يجد فرصة مثل أم كلثوم

اللقاء الأول

أما عن لقائه الأول بأم كلثوم، فيقول السنباطي عنه في أحد حواراته: «كان عمري اثني عشر عاماً أو ثلاثة عشر عامًا، كنت لا أزال صغيراً، لا أدرك، كان صوتي فيه بريق ولمعة جميلة جداً، وكان والدي يأخذني معه إلى الأفراح، وكنت أغني معه، يقول وصلة، وأنا وصلة، حتى الفجر، فاشتهرتُ شهرة جميلة في ضواحي المنصورة، وفي هذا المكان بالذات كان أول لقاء لي مع أم كلثوم. كان في محطة اسمها محطة (قرين)... في هذه البلدة التقيت أم كلثوم، كانت عائدة من فرح أنشدتْ فيه المولد النبوي، كنت تقرأ المولد لابسة العقال، وأنا راجع من فرح، فتقابلنا ونحن ننتظر القطار، وكنا طفلين، لكنها كانت تكبرني بخمس أو ست سنوات... وبزغ اسم أم كلثوم، واسمها صار يتردد على كل لسان، لدرجة أني شعرت بالغيرة».

في القاهرة

في سنة 1928 انتقل السنباطي مع والده إلى القاهرة، أملاً في أن يجد فرصة مثل أم كلثوم التي يرى أنه لا يقل عنها، فكان له بالفعل ما أراد، ولكن من وجهة أخرى. فحين تقدم السنباطي للدراسة في معهد الموسيقى العربية ليكون طالباً به، اختبرته لجنة من الأساتذة وقد أصيب أفرادها بالذهول لأن قدراته أكبر من أن يكون تلميذاً لديهم، فتم تعيينه مدرساً لآلة العود والأداء مقابل أربعة جنيهات شهرياً. استمر السنباطي أستاذاً بالمعهد لمدة ثلاث سنوات، استقال بعدها لانشغاله كأحد الموسيقيين والعازفين الذين ذاع صيتهم في القاهرة مع ثلاثينيات القرن الماضي. وحين افتتحت الإذاعة المصري سنة 1934، كُلّف السنباطي بتقديم فقرات عزف وغناء أسبوعيّة بالإضافة لتلحينه لمطربي الإذاعة. ولكن شيئاً فشيئاً كان السنباطي يبتعد عن الغناء مستغرقاً في التلحين لكبار مطربي عصره.

90 لحناً كلثومياً

في سنة 1935 كان أول لقاء عملي بين السنباطي وأم كلثوم مع أغنية «على بلد المحبوب»، حيث ظل السنباطي يلحن لأم كلثوم ما يقرب من 40 عاما، قدم فيها أكثر من 90 لحناً كلثومياً، ويكاد يكون هو ملحنها الوحيد في فترة الخمسينيات. ومن أبرز ثمار ذلك التعاون قصائد الأطلال لإبراهيم ناجي، وقصائد لأحمد شوقي هي سلو قلبي، وولد الهدى، ونهج البردة. إضافة إلى مجموعة أخرى من الأغاني الناجحة، مثل: أنا وأنت ظلمنا الحب، الحب كده، هجرتك يمكن أنسى هواك، عودت عيني. وكان ارتباط السنباطي بأم كلثوم قد بلغ مبلغه حتى قال: قصة حياتي هي أم كلثوم. وحين رحل رياض السنباطي عن عمر 74 سنة، في 10 سبتمبر/ أيلول 1981، ترك خلفه مكتبة موسيقية ضخمة، حيث بلغ عدد مؤلفاته الغنائية 539 عملاً في الأوبرا العربية والأوبريت والإسكتش والديالوج والمونولوج والأغنية السينمائية والدينية والقصيدة والطقطوقة والموالي. وبلغ عدد مؤلفاته الموسيقية 38 قطعة، وبلغ عدد شعراء الأغنية الذين لحن لهم حوالي 120 شاعراً، فقد غنى له إضافة إلى أم كلثوم مطربون كثيرون، مثل منيرة المهدية، وفتحية أحمد، وصالح عبد الحي، ومحمد عبد المطلب، وعبد الغني السيد، وأسمهان، وهدى سلطان، وفايزة أحمد، وسعاد محمد، ووردة، وميادة الحناوي ونجاة، وسميرة سعيد، وابتسام لطفي وطلال مداح، وعزيزة جلال وميادة الحناوي وياسمين الخيام وغيرهم!

وأخيراً

تخفّي نجيب محفوظ

محمود الرحبي

من أهمّ ميزات الروائي والقاص، نجيب محفوظ، الذي مرّت، في 30 أغسطس/ آب المنصرم، ذكرى رحيله الرّابعة عشرة، قدرتُه الكبيرة على «التخفّي» خلف ما يقرأ. يمكن بداية التحدث عن لغته التي تخفي قراءاته للتراث العربي وتشرّبه العميقَ لأهمّ روافده ومراجعه. لو ذهبتَ حاليا، في أي وقت، إلى سوق الأزبكية في القاهرة، يمكنك أن تشتري «عربة» كاملة من روايات محفوظ وبسعر «معقول». وحين تقرأها، أو تعيد قراءتها، ستعيش في صميم لغة خاصة، هي «معجم نجيب محفوظ» .. تلك اللغة التي تُذكّرنا، مع كثير من التحوّل، بلغة الثعالبي وابن خلدون، فرواية «خان الخليلي»، مثلا، ليست فقط رواية عوالم وقاع، بل هي أيضا رواية «تتخفّى» بين صفحاتها قراءاتُ محفوظ للتراث العربي. وستستشعر اطّلاعه العميق على مُتون هذا التراث من خلال شخصية المثقف، فقد نحتَ محفوظ اللغةَ العربية القديمة، المُوغلة في البلاغة، و«صقَلَ» منها لغة روائية رائقة لا هي مثقّلة ولا هي سطّحت العبارات. وهكذا نجح رائدُ «السّهل المُمتنع» في أن يخاطب الجميع، بغضّ النظر عن انتماءاتهم أو ثقافاتهم أو أعمارهم. كما ستتعرّف على معلوماتٍ إداريةً وسياسية وواقعيةً، يتخفى خلفها، من خلال شخصيات أخرى تزخر بها رواياته العديدة والخالدة، فكما لمحفوظ معجمَه اللغويَ الثري الذي متح منه، لديه كذلك منجمه المعيشي الواقعي الذي اغترف منه ليُبدع أعماله، التي جعلت الحائز الوحيد على «نوبل» في خارطة الإبداع العربي (1988)، على الرغم من رحيله، يواصل العيش بيننا. المعجم لديه ثابت، فيما المنجم مُتجدّد وعميق، ففي «ليالي ألف ليلة» تتخفّى قراءات محفوظ لـ«ألف ليلة وليلة»؛ إذ حوّل عوالم الليالي القديمة إلى قاهرة الثمانينيات، بلغة وفضاء جديديْن. وهكذا فعل أيضا في «رحلة ابن فطومة» التي نجد فيها تناصّا مع رحلة ابن فضلان. ولن يحتاج القارئ إلى فراسةٍ كثيرة لينتبه إلى ذلك. فيكفي، مثلا، أن يتوقف عند مشهد الناس الذين يعيشون عراةً في العمَلين معا، وغير ذلك من شواهدَ ليقف على هذا التناصّ في أوضح تجلياته. ويسري الأمر نفسه على «بدائع الزّهور» لابن إياس التي نجدها مُتخفّية في «أولاد حارتنا»..

صحيح أنّ مبدع أشهر ثلاثية في الأدب العربي («بين القصرين» و«قصر الشّوق» و«السكّرية») ينطلق في كثير من رواياته من إحداثياتٍ ومواقعَ مُحدَّدةٍ وواقعية، لكنه لا يلتزم بها ولا ينضبط لها، لذا فإن تصنيفه كاتبا واقعيّا فيه نظر، ويحتاج إلى نقاش. ومن ذلك قولُ بعضهم إنه امتداد لبلزاك الذي، لفرط واقعيته، استعان المهندسون برواياته في تطوير باريس! أو كما فعل مترجمُ ثلاثية محفوظ إلى الفرنسية حين كتب على غلافها «فلوبير المصري»، فمن يقرأ، مثلا، رواية «زقاق المدق» (1947)، ذلك الزقاق الصغير والضيّق، سيستشفّ أن محفوظ لم يكتف بوصفه كما هو، وإنما انطلق منه ليضيف إليه وقائعَ أخرى وعوالمَ واسعةً، ربما استمدّها من أماكن أخرى.

وتستدعي ذكرى نجيب محفوظ، كذلك، الوقوف أمام كاتب عالمي عرف كيف يكتب قصة قصيرة انطلاقا من واقع واسع، ويكتب رواية طويلة انطلاقا من واقع ضيّق. وهو في ذلك يدخل في تحدّ تتناوب فيه الحياة والفن، لتصنعا حيوات كاملة، بشخوص وأحداث ومواقف كرّست اسمه كاتبا عبقريا ومتفرّدا.

> عرف كيف يكتب قصة قصيرة انطلاقاً من واقع واسع، ويكتب رواية طويلة انطلاقاً من واقع ضيّق

يمكن أن يُكتب الكثير عن عبقرية هذا المواطن المصري المديني، الذي كان يتحرّك في الشوارع، وتحت الأضواء الخافتة بهدوء ومكر جميلين، والذي لم يكن يترك أي شاردة وواردة في شوارع القاهرة وأزقتها الخلفية إلا وأحصاها ووظفها في ثنايا قصصه ورواياته. ففي رواية «الكرنك»، مثلا، كان يستمتع في مطعم ريش بحديث القاص المتميز سعيد الكفراوي الذي كان حينئذ خارجا من أحد سجون عبد الناصر، ثم كتب روايته الشهيرة التي كان الكفراوي «متخفّيا» فيها تحت اسم آخر. ليست أهمية نجيب محفوظ في واقعيته كما أشيع خطأ، وإلا لكان اندحر منذ خطواته الأولى كما حصل لكثيرين، إنما أهميته وسبب صموده وتفوقه هي في هذا الثراء اللغوي، وفي هذه القدرة الهائلة على إذابة الحدود بين الواقع والمتخيل، وقدرته على الإيهام بالحقيقة. ولن ننسى قدرته التجريبية التي يمكن للحديث فيها أن يطول ويتشعب. وليس سوى مثال أن نرى تلك الأبيات الصوفية المترجمة من الفارسية إلى العربية التي طعّم بها روايته ملحمة «الحرافيش»، والتي ربما نجد أنها تخفي في هيكلها الداخلي قراءته «مائة عام من العزلة». رحم الله نجيب محفوظ.

سعر النسخة: مصر **جنيهان**، تونس **900 مليم**، لبنان **1000 ليرة**، قطر **3 ريالات**، السعودية **3 ريالات**، الكويت **200 فلس**، الإمارات **3 دراهم**، عمان **300 بيزة**، البحرين **300 فلس**، الأردن **400 فلس**، العراق **500 دينار**، المغرب **4 دراهم**، الجزائر **ديناران**، اليمن **50 ريالاً**، سورية **25 ليرة**، السودان **10 جنيهات**، ليبيا **200 درهم**، موريتانيا **35 أوقية** ◻ UK **£ 1,20**, Austria **€ 2,20**, Belgium **€ 2,20**, France **€ 2,20**, Germany **€ 2,30**, Holland **€ 2,30**, Italy **€ 2,10**, Spain **€ 2,20**, Switzerland **CHF 3,50**
Turkey **TL 5,00**, USA **$ 2,00**